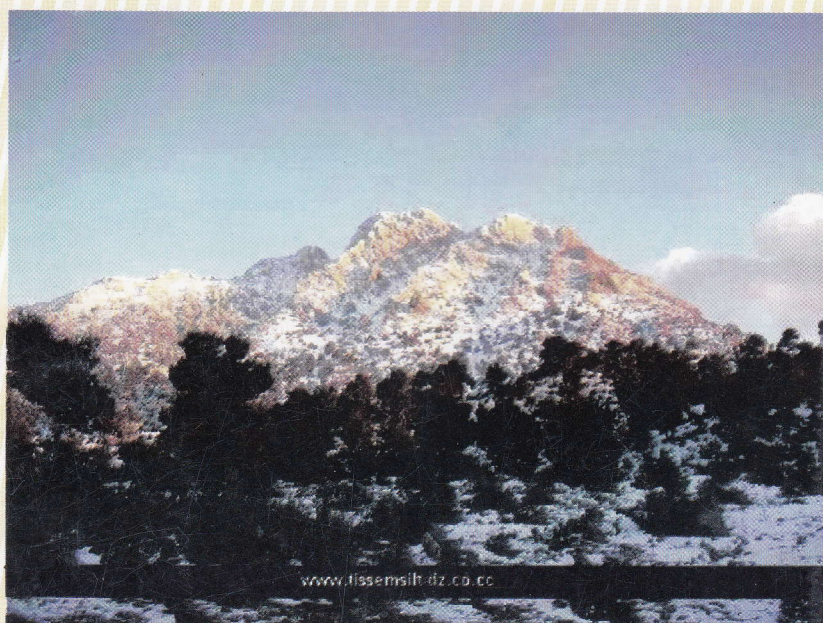


المعيار

مجلة دورية محكمة تصدر عن
المركز الجامعي تيسمسيلت



العدد : 02 - ديسمبر 2010

منشورات المركز الجامعي بتيسمسيلت-
الجزائر

المعيار

مجلة دورية محكمة تصدر عن
المركز الجامعي تيسمسيلت



العدد: 02 - ديسمبر 2010

منشورات المركز الجامعي بتيسمسيلت-
الجزائر

المعيار



مجلة دورية محكمة تصدر عن

المركز الجامعي تيسمسيلت

تعنى بالدراسات الأدبية والقانونية والاقتصادية باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية.

العدد الثاني ديسمبر 2010

رئيس المجلة

د. الطيب بن جامعة

المدير المسؤول

رئيس التحرير

د. محمد بلحسين

أ. رشيد مرسي

رئيس هيئة التحرير

أ. بشير دردار

هيئة

التحرير

أ. خالد تواتي

أ. خالد روشو

أ. قدوية يعقوبي

أ. دايري مسكين

أ. الحاج لونيس بلخياطي

أ. الجيلالي لعقاب

الهيئة

العلمية

أ.د محمد عباس - جامعة تلمسان -

أ.د مختار حبار - جامعة وهران -

أ.د عبد الجليل مرتاض - جامعة تلمسان -

أ.د محمد بلوحي - جامعة بلعباس -

د. بوسماحة الشيخ - جامعة تيارت -

أ.د شريط عابد - جامعة تيارت -

أ. رابحي عبد القادر - جامعة سعيدة -

د. كبريت علي - المركز الجامعي تيسمسيلت

المراسلات

الأستاذ: رشيد مرسي

المركز الجامعي تيسمسيلت

الهاتف/ الفاكس: 046 49 56 18

البريد الإلكتروني: rachidmersi@yahoo.fr



شروط النشر بالمجلة

- المعيار مجلة علمية محكمة تنشر البحوث الأكاديمية والدراسات الفكرية ، العلمية، الأدبية التي لم يسبق نشرها من قبل.
- دورية تصدر مرتين في السنة عن المركز الجامعي بتيسمسيلت.
- تُقبل البحوث باللغات العربية و الفرنسية و الانجليزية.
- تخضع البحوث و الدراسات المقدمة للمجلة للشروط الأكاديمية المتعارف عليها.
- تخضع البحوث للتحكيم من طرف اللجنة العلمية للمجلة.
- تُقدم البحوث و الدراسات مكتوبة في ورقة على مقاس B5 بهامش 2.5 سم عن يسار الصفحة وأسفلها وأعلاها، وهامش 3 سم يمين الصفحة.
- تتم الكتابة بخط (Simplified Arabic) حجم(14)، وفي الهامش بالخط نفسه حجم (12).
- تتم كتابة البحوث كاملة أو الفقرات والمصطلحات والكلمات باللغة الأجنبية داخل البحوث المكتوبة باللغة العربية بخط (Times new roman) حجم (14)، و في الهامش بالخط نفسه حجم (12).
- تكون الهوامش والإحالات في آخر الدراسة ولا يقبل استعمال التهميش الأوتوماتيكي.
- يُقدم البحث مخزناً في ملفي word و pdf في قرص مضغوط وفي نسخة ورقية مطبوعة عليهما البيانات الضرورية الخاصة بالمقال وصاحبه.
- لا يقل حجم البحث عن 08 صفحة ولا يزيد عن 20 صفحة.
- الأعمال المقدمة لا تُردّ إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
- المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها، و المجلة غير مسؤولة عن آراك وأحكام الكتاب. كما أن ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات تقنية و فنية.

المدير المسؤول عن النشر

محتويات العدد

• كلمة

• مقالات اللغة والأدب العربي

- 09.....إشكالية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية.
- 20.....منحنيات السؤال الإبداعي في ديوان (توشيحُ الذَاكرة) للشاعر مجدوب العيد المشراوي.
- 33.....إشكالات النص المترابط.....
- 54.....التأويل وأثره في نشأة الفرق.....
- 73.....الشُّروحات المجازية في مُعجم أساس البلاغة دراسة في المنهج والمحتوى.....
- 88.....مستويات اللّغة الصوفية عند محي الدين بن عربي.....
- 101.....الهاجس الإبستمولوجي في رسائل الجاحظ.....
- 124.....الرواية المغاربية المكتوبة بالعربية..في النشأة والتطور.....
- 143.....سمات القصيدة المعاصرة.....
- 163.....البعد الإنساني في شخصية الأمير عبد القادر الجزائري.....

• مقالات العلوم القانونية والإدارية

- 185.....المركز القانوني للصحفيين أثناء الحروب وحمايتهم من أثاره.....
- 207.....منهج المقارنة بين الشريعة و القانون.....
- 227.....حق الزوجة في التطليق لعدم الإنفاق.....
- 243.....المسؤولية الجنائية الداخلية لرؤساء الدول.....

• مقالات العلوم الاقتصادية والتجارية

- 265.....واقع وآفاق التنمية السياحية في ظل التحديات الراهنة في الجزائر
- 285.....دور تطبيق مفهوم التسويق بالعلاقات في بناء و تدعيم المزايا التنافسية للمؤسسة.....
- 316.....إستراتيجية تطوير المنتجات كأداة لتحقيق التميز للمؤسسة

2 1 2



" الإبداع نقد، والنقد إبداع "

أوكتافيو باث

هذه المجلة المعيار

تهفو في عددها الثاني إلى تأسيس رؤيا نقدية وفكرية حول مجموعة من المفاهيم والقضايا والظواهر التي تشكل محوراً إشكالياً في ميادين أدبية واقتصادية وقانونية وفكرية.

كما تحاول تجاوز الطروحات السابقة بآليات ومفاهيم تتماشى وطبيعة التحول والمغايرة، والاستمرارية الزمنية، وما تفرزه من مفارقات معرفية وفكرية. في شتى الميادين.

لذلك فإن **المعيار** تفتح أفقها للنقاد والباحثين للمساهمة في إثراء مدونتها النقدية والفكرية.

د. بلعسين محمد

مستویات اللغة الصرفية عند محي الدين بن عربي

مستویات:

عبد القادر بن عزة

جامعة تلبسان

مستويات اللغة الصوفية عند محي الدين بن عربي

عبد القادر بن عزة
جامعة تلمسان - الجزائر -



توطئة:

اخترق الخطاب الصوفي لغة التداول والتواصل، لأنها أصبحت في نظر الصوفية لا تستجيب للمقامات والأحوال المعاشة، ولم تعد تعبّر عن مكنونات هذه النفس، فمن الضروري عندهم أن تصير هذه اللغة هي ذاتها حجابا. فدأب الخطاب الصوفي على العمل لخلق لغة ثانية داخل اللغة الأولى "وهي لغة الرمز والإشارة"(*)⁽¹⁾.

وهذه اللغة الرمزية هي التي ستمكن من إخراج المعادل التخيلي داخل الخطاب الصوفي، لتتمّ عن تميّز التجربة الصوفية في فهمها للوجود والمعرفة عبر السفر نحو الذات ونحو الله في آن واحد. وقد بلغت كمال صورها مع محي الدين بن عربي في القرن السادس الهجري، الذي استطاع أن يفجر كل التراكمات اللغوية والدلالية، بعد أن نفث فيها ضربا مميزا من الأساليب والمصطلحات كسا بها خطابه، ويمكن اعتبار هذا من باب الغربة الخطابية ذات البعد اللّفظي بإرجاعها إلى دافعين:

- الدافع الموضوعي: وهو عجز اللغة التقليدية عن الوفاء بما يكفي الدلالة على المعاني التي حملها الخطاب الصوفي لما فيه من دقة وعمق.
- الدافع الذاتي: الازورار عن مألوف الأساليب والمفاهيم اللغوية، لأجل الحفاظ على دقة الإشارات وعمق معانيها، حتّى لا تصاب بتشويه فهمي، أو إنكار فهمي من طرف العوام غير المطلعين على دقائق هذا الخطاب.

1 - مستوى الذات واللغة:

لم تكن اللفظة مقصودة لذاتها، للتعمية عما يسميهم ابن عربي، "علماء الرسوم" وقد أورد ذكر ذلك في مقدمة رسالته "اصطلاح الصوفية" إذ يقول: "...مع عدم معرفتهم بما توطأنا عليه من ألفاظ التي بها يفهم بعضنا عن بعض كما جرت عادة أهل كل فن من العلوم..."⁽²⁾، وقد أكد هذا القشيري في رسالته حيث أشار إلى: "أنهم يستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف من معاني أنفسهم والإجمال والتستر على من باينهم في طريقتهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب..."⁽³⁾. وهذا القصد في إخفاء المعاني تحت ستر الرمز كان قد دفع بالتوحيدي إلى القول: "ما أحوجنا إلى عالم منطيق يكشف لنا كلام هذه الطائفة"⁽⁴⁾. فالظاهر أن اللغة التقليدية بتعابيرها وأساليبها لم تعد قادرة عن الإفصاح والكشف عن المواجد داخل الخطاب الصوفي لما يمرّ فيه من رموز وإشارات لم تستقر في غير عقول أهل الدراية بلغة التصوّف.

فنحن بإزاء عملية بناء جديد للغة النثر والشعر، لتحديد العلاقة مع الذات، وتبيين التفاعل مع الآخر. فأولى نواة تشكلت لخلق الثنائيات التي تولدت في رحم هذا الخطاب هي: علاقة الذات مع الآخر عبر آليات غريبة اللفظ ورمزية الخطاب.

إن رؤية ابن عربي للغة عبر دائرة اللفظ التي وضعها لنفسه، دعتة إلى إعادة ترتيب العلاقة بين الذات واللغة ومحاولة مساءلتها، لا من باب الانفتاح على هذا الخطاب الصوفي لفهم نوازه ومرامييه، بل لإعادة بناء السياق العام للإشكالية. ويستمد ابن عربي هذا التصور الجديد باعتماد على طرح السؤال المعرفي الذي طالما راقب علاقة الديني بالمجتمع في جانبه السياسي والثقافي، إلى جانب مراقبته للصورة الكونية للتجربة الشعرية، التي ترسخت مع مختلف الممارسات النصيّة للخطاب الصوفي، التي سيُنسبها ابن عربي إلى دائرته الخاصة في المكان والزمان، لكن إبداعيا سيحاول أو يجعله صامدا خارج هذا الزمان والمكان من خلال رهانه على الاحتمال واللاتهائي.

وقد أورد زكي مبارك على لسان ابن عربي تعلقه بفتاة بمكة المكرمة قوله: "فملكك عليه أقطار روحه، وسارت به في شعاب الهوى العذري فلم يرجع إلّا وهو أشلاء من الأسى والحنين"⁽⁵⁾، ثم يطلق العنان للرجل يصف هذه الفتاة بقوله: "...وفي خلقها الذي هو روضة المزن، شمس بين العلماء، بستان بين الأدباء، حقة مختومة واسطة عقد منظومة يتيمة دهرها، كريمة عصرها، سابغة الكرم، عالية الهمم... فكل اسم أذكره في هذا الجزء فعنها أكني، وكل دار أندبها فدارها أعني..."⁽⁶⁾. فلما أراد زكي مبارك أن يجد مخرجا لابن عربي لوصف الفتاة قال: "إنّ ابن عربي كان رجلا مقهور النزوات والأهواء، كان رجلا محبوسا عن اللذات الحسيّة، فاندفع يطوف حولها في رحال عقلية لها رونة ورواء... وهو المفزع لكل نفس طامحة ضاعت حضوضها في ميدان الحواس..."⁽⁷⁾.

إنّ زكي مبارك رأى عالم الأخلاق عند الصوفية تقترب فيه الأرض من السماء، فتكون الظواهر ممّا يجزم بقوة الصلّة الأرضية على حين تكون البواطن موصولة الأواصر بأقطار السماء. إلّا أنّ وضع مثل هذا التصوّر، في دائرة العبور من اللّغة التقليدية المتعارف عليه إلى سرّ لغة الغربة، أفلم يكن ابن عربي نفسه هو المعقب عن وصفه هذا بقوله: "...ولم أزد فيما نظمته في هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية، والتنزلات الروحانية، والمناسبات العلوية، جريا على طريقتنا المثلى، فإنّ الآخرة خير لنا من الأولى، لعلمها رضي الله عنها بما إليه أشير ولا ينبئك مثل خبير، والله يعصم قارئ هذا الديوان من سبق خاطره، إلى ما يليق بالنفوس الأبية، والهمم العلية المتعلقة بالأمر السماوية..."⁽⁸⁾.

فاستخدام الرّمز ولغة الإشارة أمر لا مناص منه في الخطاب الصوفي، لأنّه تعبير عن المواجيد والأحوال الروحية، بعيدا عن أيّ تصوّر ماديّ كما سبق وأنّ أشرنا إليه، لأنّ هذه اللّغة الاعتيادية قاصرة عن إدراك هذه التجارب العميقة في نظر ابن عربي، "فمقدار ما تكون الموازنة كاملة بين الحالة الباطنة التي نريد إخراجها، وبين الشّيء المحسّ الذي وقع عليه اختيارنا لنرمز به إلى تلك الحالة، تكون العملية الرّمزية قد حقّقت غايتها..."⁽⁹⁾. لذلك فالعلم بخفايا عالم الغيب

المجهول والمرموز له، الذي ينكشف في رؤية مجردة، قد يحتاج إلى اللجوء إلى صور وشواهد منتزعة من عالم الحس، إلا أنها توحى بصور أعمق مما يبدو على ظاهرها، كما نجد عند ابن عربي: "أنّ العارفين لا يستطيعون أن ينقلوا مشاعرهم جملة إلى غيرهم من الناس، وكلّ الذي يستطيعونه، أن يرمزوا بها إلى الذين بدأوا بداه...⁽¹⁰⁾".

2- مستوى الإبداع واللغة:

إنّ المتنبّع لمنحى التأليف عند ابن عربي والذي لم يغادر دائرة الرمزية اللغوية، والتي تجاذبته خيوط الذات واللغة، فإنّه نحى منحى غريبا، إذ يقع تحت حال الإلهام فيدوّن ما يدوّنه، كما لو كان يملأ عليه إملاء، حتى أنّه كان يكتب في شبه غيبوبة. ويشرح كيف تتم لديه العملية الإبداعية غير الاعتيادية بقوله: "فإن تأليفنا هذا وغيره لا يجري مجرى المؤلفين، فإنّ كل مؤلف إنّما هو تحت اختياره، وإن كان مجبورا في اختياره أو تحت العلم الذي تعلّمه خاصّة، فيلقي ما يشاء، ويمسك ما يشاء، أو يلقي ما يعطيه العلم وتحكم عليه المسألة التي هو بصددّها حتى يبرز حقيقتها. ونحن في تأليفنا لسنا كذلك إنّما هي قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية مراقبة لما يفتح له الباب، فقيرة خالية من كلّ علم لو سألت في ذلك المقام عن شيء ما سمعت لفقدّها إحساسها وفهمها برز لها من وراء ذلك الستر أمر، بادرت لامتناله وألفته على حسب ما حدا لها في الأمر...⁽¹¹⁾". فالذات المبدعة في تشكيلها للخطاب الصوفي استلزم عليها في كلّ الأحوال أن تخلق لنفسها لغة تساعدّها في استضائة الدوائر المحيطة بها، ولو كانت علوية، دون التفكير فيما ينجرّ عليه من حدوث أزمة، بل أزمات في توصيل رسائل هذا الخطاب إلى المتلقي. إنّ متصوّفا كابن عربي حمل خطابه الرمزي على ظهر شفرات لغوية متوالية، خلقت ضبابية في التواصل معه، بدءاً بعنوان المصنّف. فكثيرا ما يشير في كتبه مثل الفتوحات المكية وفصوص الحكم وديوانه ترجمان الأشواق إلى مصادرها العلوية وتجلياتها له. ويصرّح ذلك علنا بأنّ كتبه من مصدر إلهي، بل حتى ترتيب أبواب الكتب هي عنده إملاء إلهي.

ولنستشهد بكتابه "فصوص الحكمة" الذي قال عنه إني رأيت رسول الله -
صل الله عليه وسلم- بمحروسة دمشق، وبيده كتاب، فقال لي: هذا كتاب فصوص
الحكم خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ورسوله
وأولي الأمر منا كما أمرنا. فحققت الأمنية وأخلصت النية وجردت القصد والهمة
إلى إبراز هذا الكتاب كما حدّه لي رسول الله -صل الله عليه وسلم- من غير زيادة
أو نقصان⁽¹²⁾.

إلا أن الصراع بين الذات واللغة والذي دار في مجرى قنوات الخطاب
الصوفي، يضعنا أمام مفارقة عجيبة، إذ الرمزية تبلغ ذروتها في هذا الكتاب، حتّى
يستعصي على المتلقّي الإحاطة بغايته والوصول إلى كنه عباراته، لكن دائرة
الرمزية اللفظية التي وضع ابن عربي نفسه فيها أغلقت عليه المنافذ، فتصوّر أن
آراءه البرزخية قد يحل شفراتها المتلقي، ويعقب نيكلسون عن مثل هذا الطرح
بقوله: "إن آراء ونظريات ابن عربي في هذا الكتاب صعبة الفهم، وأصعب من ذلك
شرحها وتفسيرها لأن لغتها اصطلاحية خاصة، مجازية معقّدة في معظم الأحيان،
وأيّ تفسير حرفي لها يفسد معناها، وبالتالي يستحيل فهم كتابه، والوصول إلى فكره
ومعانيه..."⁽¹³⁾. أما الجانب الشعري عنده، والمتمثل في ديوانه "ترجمان الأشواق"
فقد أثقله بالرمزية الشعرية حتّى أصبح في ضوء مرآة النقد يشرح على مظهرين:
مظهر لغوي حرفي يفسح المجال أمام المتلقي ليسبح بخياله في تموجات بحر الغزل
العفيف، ومظهر رمزي صوفي يغلق كثيرا من شفرات النصّ فيصبح التأويل^(*) هو
المخرج للولوج إلى عالم ابن عربي الشعري، ويذهب حلمي مصطفى إلى أنّه
اصطنع الرمز في هذا الديوان، إثارا منه لاسترحاله، وضنا على أسرارّه، أن يقف
عليها من ليس أهلا لها، ولا قادرا على تذوّقها⁽¹⁴⁾.

وقد حدث في ديوانه تأويلات كثيرة رمت فيه بالغزل والتشبيب بالنساء
وهذا مدلول ظاهر الشعر، إلا أنّه كان يذهب إلى أبعد من ذلك، فالبعد اللغوي
اللفظي للغربة التي عاشها ابن عربي تركته يستخدم رموز تخفي ما وراءها ما
تخفي من الموضوعات، أراد أن يفصح بها عن مواجيدّه، ودفع لما ذهب إليه بعض

المنكرين لحاله(*) . ولفتح منفذ في جدار دائرة هذه الرمزية، اضطر ابن عربي إلى وضع شرح لديوانه محاولاً فك بعض رموزه من الوجهة البيانية والعرفانية يقول في ذلك: "وشرحت ما نظمته بمكة المشرقة من الأبيات الغزلية في حال اعتماري في رجب وشعبان ورمضان، أشير بها إلى معارف ربانية وأنوار إلهية وأسرار روحانية وعلوم عقلية، وتشبيهات شرعية، وجعلت العبارة عن ذلك بلسان الغزل والتشبيب، لتعشق النفوس بهذه العبارات، فتتوفر الداوعي على الإصغاء إليها وهو لسان كل أديب ظريف روحاني لطيف"(15).

فابن عربي يؤكد دخوله مضمار الغزل، موضحاً السبب في ذلك وهو استلهاهم النفوس لميلها لشعر الغزل والنسيب. ولكن المثير في كلامه هو نعتة نفسه بالأديب الظريف ليردفعها بـ "الروحاني اللطيف". ويدفع هذا إلى استخلاص أنّ عملية الإبداع عنده -وفي قمة تمثيلها للصراع بين الذات واللغة- فإنها تنتشر إلى شقين شق الشخص الإنساني الشاعر المبدع، وشق العارف المتصوّف صاحب الترميز، إلّا أنه يجمع بين الشقين مداخل للواعج الحزن والشوق والغربة المحملة بالحنين، يقول ابن عربي في ديوانه:

سَرُوا وَظَلَامَ اللَّيْلِ أَرخَى سُودُهُ فَقُلْتُ لَهَا صَبَاً غَرِيباً مَتِيماً (16)

فيشرح ذلك بقوله: "سروا؛ الإسراء، ولا يكون ذلك إلّا بالليل، وكذا معارج الأنبياء لم تكن قط إلّا بالليل، لأنّه محلّ الأسرار والكتم وعدم الكشف. أمّا ظلام الليل أي حجاب الغيب أرخى حجابّه الذي هو وجود الجسم الكثيف، فهو ليل هذه النشأة الحيوانية لما كان سترًا على ما يحتويه من لطائف روحانية... والعلوم الشريفة، فلا يدرك جليسه ما عنده إلّا بعد العبارة عن ذلك والإشارة إليه، أي كان سرّه بالأعمال البدنية والهم النفسية، وذلك لما سرت ورحلت هذه الحكمة من قلبه، وقد شغلته بتدبيره بعض عالمه الكثيف..."(17).

وكان لوقوفنا على ديوان "ترجمان الأشواق" ملاحظة الاستعمال الرمزي للفظ الغراب للدلالة على الغربة والبعد والنأي في دائرة مغلقة لكي يلوح له ما شاء من التجليات، يقول ابن عربي:

حَتَّى إِذَا صَاَحَ الْغُرَابُ بَيْنَهُمْ فَضَحَ الْفَرَاقُ صَبَابَةَ الْمَحْزُونِ (18)

ويشرحه بقوله: "إِنَّ العناية إذا حانت لبعض أهل هذا المقام وحيل بينه وبين هذه المناظر التي كانت متجلية له، وهو ناظر إليها بفترة تلحقه، أو وارد إلهي له حكمة بالغة... فالغراب هو السبب الموجب للفراق، والصياح من الفهوانية بمنزلة كن(*)... (19)". فهذه الدلالة الرمزية، الموعرة في الرمز والإشارة، تظهر ذلك النحت الواضح بين الغربة والغراب. فقد اتخذ الغراب رمزا للشؤم والغربة والفراق، أمّا عند ابن عربي "فهو مزيل شؤم البان والغرب" (20)، لأنه لا يمثل عنده أسباب الندب، وليس له أثر في تفريق الشمل، فإن الحقائق عنده تعطي أن لا حجاب بعد التجلي، ولا محو بعد الكتابة في القلب. فمن تجليات الرمزية اللفظية في هذا السياق (علاقة الغراب بالبين) تأتي مسألة العروج وشد الرّحال إلى عالم الروحانيات، إذ يقع البين عند قوم تخلف بهم الركب للالتحاق بالعالم الروحاني، يقول ابن عربي:

لَسْتُ أَنسَى إِذَا حَدَى الْحَادِي بِمِ يَطْلُبُ الْبَيْنَ وَيَبْغِي الْأَبْرَقَا
نَعَقْتُ أَغْرِبَةَ الْبَيْنِ بَيْنَهُمْ لَا رَعَى اللَّهَ غَرَابًا نَعَا (21)

أمّا شرحه للبيتين فبقوله: "لما دعوا من جانب الحق هؤلاء الروحانيات العلى الذين كانوا لنا جلساء في الله تعالى، وحدا بهم داعي الحق إلى العروج إليه...، وقوله: "يبغي أبرقا" يبغي بهم المكان الذي يقع لهم فيه شهود الحق تعالى وسمّاه الأبرق لما شبه الشهود الذي بالبرق لنوره وسرعة زواله كنى به عن المكان والحضرة التي يقع فيها الشهود بالأبرق؛ أي المكان الذي يظهر فيه البرق، كما كنى بأغربة البين عن الأمور التي خلفته عن العروج معهم إلى الأبرق... (22)".

وفي شرحه لكثير من الأبيات على هذا المنوال، لأنه اتخذ من المقامات منازل، فالرمزية اللفظية عنده كثيرا ما تشبه من يفارق المنازل ذات المقامات الصوفية، فكما تشتدّ اللوعة والفراق عند من يطل على منازل الأطلال، فإنّ عربيّ يطلّ على مقامات الروح وآثارها بعد مغادرتها من طرف العارفين، يقول في ذلك: قف بالمنازل واندب الأطلالاً وسل الربوع الدارسات سؤالا (23)

فالمقامات التي ينزلها العارفون بالله في سيرهم اللامنتهى، تخبرك بما كانوا عليه من آداب وسنن الأحوال، ليكون لذلك تأديب ومعرفة، وسمّاها دَارسات لتغييرها عن الحال التي كانت عليه حين نزولها "فإنّ المنازل بعد فراق النازلين يذهب الأُنس بها لذهابهم إذ لا وجود لها من كونها منازل إلّا بهم"⁽²⁴⁾. فهذا يظهر أن أبعاد اللّغة في التجربة الصوفية قد تطال حتى الرمز عندهم، ذلك أنّ علاقة الخطاب الصوفي بالعالم الخارجي تتميّز بشيء من الخصوصية، تجعله مختلفا عن الرمز في الخطاب العادي في الرؤية والأداة. فمن جانب الرؤية فالخطاب العادي يصوّر وجود العالم منفصلا عن ذات الملقى والمتلقي، وقد يدخل معه في علاقة تأثير وتأثر ساعيا في ذلك إلى محاكاته أو إعادة تركيبه أو تغيير الوعي الاجتماعي به. أمّا الخطاب الصوفي فيحمل من الدلالات تدفّعه إلى رفض العالم في وجوده الذاتي، فيسعى إلى نفيه، باعتباره ظلا غير ثابت لحقيقة أبعد منه هي الأحقّ عنده بالتوجه والقصد.

أمّا جانب الأداة فحامل الخطاب والمحمول إليه يرهفان من حواسهما قدر ما يستطيعان للتعرف عن دقائق العالم وأسراره، فإنّ الأداة في الخطاب الصوفي تسعى إلى تعطيل كلّ الحواس للكشف عن دقائق العالم وأسراره، لأنّها تنتمي إلى البشرية "وبقاء البشرية غير، وحينما لا يرى الإنسان الغير، لا يرى نفسه"⁽²⁵⁾. فمن الواضح أنّ إلّحام الرؤية مع الأداة تعطي صورة الاختلاف بين التجربة الأدبية والتجربة الصوفية. فالأولى تعتمد قصرا على الفعل في اللّغة، انطلاقا من الواقع كأساس للمعرفة، والثانية تعتمد على الفعل في النفس كأساس للمعرفة.

فصل المقال:

إذا كانت المعرفة في الخطاب الأدبي تعود إلى الاتجاه التراكمي؛ بمعنى أنّها تعتمد على الإضافة المتوالية للخبرات التي تتعمق الأخيرة فيها الأولى، وقد تلغيها، وهذا لا يخرج بها في الحاليين عن كونها إضافة لمخزون تكون عبر المراحل. أمّا التجربة التي يحملها الخطاب الصوفي فتبقى ثابتة؛ بمعنى أنّها كيفية جاهزة، وفردية واحدة، تقتصر في تحقيقها على السلب المتوالي للخبرات الحسية

التي تشكل المخزون المعرفي للإنسان. فكأن الخطاب الأدبي في مسعاه الحسي يريد الذهاب نحو معرفة توجد خارجه، أما الخطاب الصوفي فيحمل خيوط تجربة تضرب على وتر العودة إلى معرفة توجد فيه، يكفي لاكتشافها صقل مرآة القلب التي تصدأ دائماً بما يتراكم عليها من عناصر العالم المادية فـ"ما ليس في الإنسان لا سبيل إلى معرفته"⁽²⁶⁾، لذلك ينصح الهجويري بالبحث عن النفس فإنها إذا عرفتْها وصلت إلى غاية الطريق، حيث إنَّ الله تعالى منزّه عن البحث عنه في المكان والزمان⁽²⁷⁾. فمن باب هذه الزاوية يمكن القول بأن كل من الخطابين الأدبي والصوفي يحملان أسراراً لكن "الفرق بين أسرار العرفاني أسرار اللاعقل، وبين أسرار الأديب والعالم التي هي أسرار عقل وعاطفة، فهو يتعامل مع أسرارهِ كأشياء يجهلها الآن، وقد يخرقها بعلمه وعقله وعاطفته غداً، أمّا العرفاني فهو يتعامل مع الأسرار كأُمور يعرفها وحده علماً مطلقاً، وبالتالي فهو يعتبرها أسراراً لا بالنسبة له هو، بل بالنسبة لغيره..."⁽²⁸⁾. فللرمز دور في كل هذا، من ناحية العرفان والذات وكذا اللغة، لأنَّ الإحساس بها يجعله يثق أكثر في معرفة أسرارهِ، والبحث عنها، بل التعبير عنها، باعتبارها علم نهائي لديه، كونه لم تصدر عن تعلم أو اجتلاب، إنما تحصل بفضل إدراك وجداني داخلي ضمن دائرة غربته التي انطلقت مكانية لتصل إلى العرفانية عبر قنوات اللفظ واللغة. وداخل معالم تجربة الغربة اللفظية ذات البعد الرمزي، يتم إدراك الوجدان المباشر عبر الخطاب الصوفي "وهو نوع من الإلهام الناشئ عن الكشف والمشاهدة، وهو نتيجة لتلك الحالات الوجدانية التي يعانيتها المتصوّف ويطلق المتصوفة عادة على هذا النوع من الإدراك كلمة كشف *Intuition* وهو منهج من مناهج الوصول إلى المعرفة اليقينية"⁽²⁹⁾.



هوامش وإحالات:

- * يستعمل أدونيس اللغة بمعنى الخطاب، ويكاد يكون هذا استسهال في التعامل مع مصطلحين متعارضين في النقد العربي المعاصر.
- (1) - علي أحمد سعيد أدونيس: الثابت والمتحول - دار العودة - بيروت - ط3 - 1970 - ص 67.
- (2) - انظر: اصطلاح الصوفية - وهي رسالة مطبوعة لابن عربي أو صحبة كتاب رشح الزلال للقشاني - دار الكتب العلمية - بيروت - 2005 - ص 169.
- (3) - القشيري: الرسالة القشيرية - تحقيق عبد الحليم محمود ومحمّد بن شريف - دار الكتب الحديثة - القاهرة - د.ت - ج 1 - ص 218.
- (4) - أبو حيان التوحيدي: البصائر والذخائر - نشر أحمد أمين وأحمد صقر - لجنة التأليف والترجمة - مصر - 1953 - ص 48.
- (5) - زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق - المكتبة العصرية - بيروت - 2006 - ج 1 - ص 116.
- (6) - انظر: مقدمة شرح ديوان ترجمان الأشواق - تحقيق محمد عبد الرحمن الكردي - مصر - 1968 - ص 7.
- (7) - زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق - ج 1 - ص 118.
- (8) - انظر: مقدمة شرح ديوان ترجمان الأشواق - علّق عليه خليل عمران منصور - منشورات محمّد عليّ بيضون - دار الكتب العلمية - بيروت - ص 9.
- (9) - محمود زكي نجيب: طريقة الرمز عند محي الدين بن عربي - ضمن سلسلة كتاب التذكاري محي الدين بن عربي - دار الكتاب العربي - القاهرة - 1969 - ص 69.
- (10) - نيكلسون: الصوفية في الإسلام - ترجمة نور الدين شريبة - مكتبة الخانجي - القاهرة - 1951 - ص 101.
- (11) - نقلاً عمّا ذكره: عليّ عبد الجليل راضي في كتاب: الروحية عند ابن عربي - مكتبة النهضة - القاهرة - د.ت - لم نعثر له عن مصدر الإحالة.
- (12) - محي الدين بن عربي: فصوص الحكم - تحقيق أبو العلا عفيفي - دار الكتاب العربي - بيروت - د.ت - ص 47.
- (13) - نيكلسون: الصوفية في الإسلام - ص 104.

(*)- في باب التأويل يذكر بلاسيوس أن ابن عربي وضع كتاباً في تفسير وتأويل القرآن الكريم عرف بـ"تفسير الشيخ الأكبر" وهو تفسير صوفي رمزي أطلق فيه العنان للتأويل الرمزي مع الإشارة.

¹⁴- حلمي محمد مصطفى: الحياة الروحية في الإسلام- دار إحياء الكتب العربية- مصر- 1945- ص142.

(*)- شرح ابن عربي ديوانه ترجمان الأشواق في كتاب سماه "ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق" حقق عدة مرات منها تح: د. محمد عبد الرحمن الكردي سنة 1968، أما الدراسات التي أقيمت حول الكتاب فهي كثيرة جداً.

¹⁵- ابن عربي: ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق- تحقيق محمد عبد الرحمن الكردي- القاهرة- 1968- ص26.

¹⁶- ابن عربي: الديوان- دار صادر، بيروت- 1969- ص96.

¹⁷- ابن عربي: ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق- ص24.

¹⁸- المصدر نفسه- الصفحة نفسها.

(*)- يشير خالد بلقاسم في كتابه "الكتابة والتصوف عند ابن عربي" إلى إخضاع ابن عربي فعل الأمر (كن) الذي صدر عنه الوجود وبه انكبت الصور في الكون، إلى تحليل جنسي تم فيه التداخل بين الصوت أو الروح والجسد، ويعتبرها الكاتب نظرية جنسية في النكاح لم تقرأ في شموليتها، ولا تزال تنتظر البحث.

¹⁹- ابن عربي: ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق- ص26.

²⁰- المصدر نفسه- ص23.

²¹- المصدر نفسه- ص43.

²²- ابن عربي: ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق- ص75.

²³- المصدر نفسه - ص67.

24- المصدر نفسه- ص88.

²⁵- أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري: كشف المحجوب- له ترجمة إلى الانجليزية لمحمد

أحمد ماضي- دار التراث العربي- القاهرة- 1976- ص49. كما قامت إسعاد الهادي قنديل

بدراسة للكتاب- دار النهضة العربية- لبنان- 1985.

²⁶- نيكلسون: الصوفية في الإسلام- ص83.

²⁷- الهجويري: كشف المحجوب- ص148.

²⁸- محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي - المركز الثقافي العربي - دار البيضاء - المغرب - 1986 - ص 386.

²⁹- أبو الوفا التفتازاني: الإدراك المباشر عند الصوفية - مقال نشر بمجلة علم النفس - كلية الآداب - جامعة القاهرة - العدد 3 - أبريل 1964 - ص 370.

المركز الثقافي العربي - دار البيضاء